سورة سبأ

١ـ **هذا اسمها** الذي اشتهرت به في كتب السنة وكتب التفسير وبين القراء ولم أقف على تسميتها في عصر النبوة.

ووجه تسميتها به أنها ذكرت فيها قصة أهل سبأ.

وهي مكية وحُكي اتفاق أهل التفسير عليه.

وعن مقاتل أن آية: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ نزلت بالمدينة. ١٣٣/٢٢

٢ـ **وهي السورة الثامنة والخمسون في عداد السور،** نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر كما في المروي عن جابر بن زيد واعتمد عليه الجعبري كما في الإتقان، وقد تقدم في سورة الإسراء أن قوله ـتعالى ـ فيها: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ إنهم عنوا قوله ـتعالى ـ في هذه السورة: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ﴾.

فاقتضى أن سورة سبأ نزلت قبل سورة الإسراء وهو خلاف ترتيب جابر بن زيد الذي يعد الإسراء متممة الخمسين.

وليس يتعين أن يكون قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ معنيّاً به هذه الآية؛ لجواز أن يكون النبي ﷺ هددهم بذلك في موعظة أخرى.

وعدد آيها أربع وخمسون في عد الجمهور، وخمس وخمسون في عد أهل الشام. ١٣٣/٢٢ـ١٣٤

٣ـ من أغراض هذه السورة: إبطالُ قواعدِ الشرك وأعظمُها إشراكهم آلهةً مع الله، وإنكارُ البعث؛ فابتدئ بدليل على انفراده ـتعالى- بالإلهية عن أصنامهم ونفي أن تكون الأصنامُ شفعاءَ لِعُبَّادها.

ثم موضوعُ البعث، وعن مقاتل: «أن سببَ نزولها أن أبا سفيانَ لما سمع قوله ـتعالى-: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الآية الأخيرة من سورة الأحزاب ـ قال لأصحابه: كأن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، فأنزل الله ـتعالى- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾» الآية.

وعليه فما قبل الآية المذكورة من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ تمهيدٌ للمقصود من قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾.

واثباتُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بما في السماوات وما في الأرض؛ فما يخبر به فهو واقع ومن ذلك إثبات البعث والجزاء.

وإثباتُ صدق النبيِّ ﷺ فيما أخبر به، وصِدْقُ ما جاء به القرآنُ، وأن القرآنَ شَهِدَتْ به علماءُ أهلِ الكتاب.

وتخلل ذلك بضروب مِنْ تهديدِ المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين مِنْ قَبْل.

وعَرَّضَ بأن جَعْلَهم لله شركاءَ كفرانٌ لنعمةِ الخالق؛ فَضَرَبَ لهم المثلَ بمن شكروا نعمةَ اللهِ واتقوه؛ فَأُوتوا خيرَ الدنيا والآخرة، وسُخِّرَتْ لهم الخيراتُ مِثْلِ داودَ وسليمانَ، وبمن كفروا بالله؛ فسلَّط عليه الأرزاءَ في الدنيا وأَعَدَّ لهم العذاب

في الآخرة مثلِ سبأ، وحذِّروا من الشيطان، وذُكِّروا بأن ما هم فيه من قرة العين يقربهم إلى الله، وأنذروا بما سيلقون يوم الجزاء مِنْ خِزْيٍ، وتكذيبٍ، وندامةٍ، وعدم النصيرِ، وخلود في العذاب، وبُشِّر المؤمنون بالنعيم المقيم. ٢٢/١٣٤ـ١٣٥

٤ـ واعلم أن كلمتي: ﴿يَلِجُ﴾ و﴿يَخْرُجُ﴾ أوضح ما يُعَبِّر به عن أحوال جميع الموجودات الأرضية بالنسبة إلى اتصالها بالأرض، وأن كلمتي: ﴿يَنزِلُ﴾ و﴿يَعْرُجُ﴾ أوضح ما يعبَّر به عن أحوال الموجودات السماوية بالنسبة إلى اتصالها بالسماء، من كلمات اللغة التي تدل على المعاني الموضوعة للدلالة عليها دلالة مطابقية على الحقيقة دون المجاز ودون الكناية، ولذلك لم يعطف السماء على الأرض في الآية فلم يقل: يعلم ما يلج في الأرض والسماء، وما يخرج منهما، ولم يُكتَفَ بإحدى الجملتين عن الأخرى.

وقد لاح لي أن هذه الآية ينبغي أن تجعل من الإنشاء مثل ما اصطلح على تسميته بصراحة اللفظ.

ولذلك ألحقتها بكتابي: «أصول الإنشاء والخطابة» بعد تفرق نسخه بالطبع، وسيأتي نظير هذه في أول سورة الحديد. ٢٢/١٣٧ـ١٣٨

٥ـ ولما كان من جملة أحوال ما في الأرض أعمالُ الناس وأحوالُهم من عقائد وسير، ومما يعرج في السماء العمل الصالح والكَلِم الطيب ـ أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي الواسع الرحمة، والواسع المغفرة.

وهذا إجمالٌ قُصِدَ منه حثُّ الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة المرغوب فيهما؛ فإن من رغب في تحصيل شيء بحث عن وسائل تحصيله، وسعى إليها.

وفيه تعريض بالمشركين أن يتوبوا عن الشرك فيغفر لهم ما قدموه. ١٣٨/٢٢

٦ ـ وبهذا تتبين أن إرادة علماء أهل الكتاب من هذه الآية لا يقتضي أن تكون نازلة بالمدينة حتى يتوهم الذين توهموا أن هذه الآية مستثناة من مكيات السورة كما تقدم.

والأظهر أن المراد من ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من آمنوا بالنبي ﷺ من أهل مكة لأنهم أوتوا القرآن، وفيه علم عظيم هم عالموه على تفاضلهم في فهمه والاستنباط منه؛ فقد كان الواحد من أهل مكة يكون فظّاً غليظاً حتى إذا أسلم رق قلبه، وامتلأ صدره بالحكمة، وانشرح لشرائع الإسلام، واهتدى إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم.

وأول مثال لهؤلاء، وأشهره، وأفضله هو عمر بن الخطاب، لِلبَوْنِ البعيد بين حالتيه في الجاهلية والإسلام.

وهذا ما أعرب عنه قول أبي خراش الهذلي خالطاً فيه الجد بالهزل:

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

فإنهم كانوا إذا لقوا النبي ﷺ أشرقت عليهم أنوار النبوة؛ فملأتهم حكمة وتقوى.

وقد قال النبي ﷺ لأحد أصحابه: «**لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة بأجنحتها**».

وبفضل ذلك ساسوا الأمة، وافتتحوا الممالك، وأقاموا العدل بين الناس مسلمهم وذمِّيهم، ومُعَاهَدِهم، وملأوا أعين ملوك الأرض مهابة.

وعلى هذا المحمل حمل ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ في سورة الحج، ويؤيده قوله

-تعالى-: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ ﴾ في سورة الروم. ٢٢/١٤٥-١٤٦

٧- ولم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة وقد حرمها الإسلام؛ لأن الإسلام أمعن في قطع دابر الإشراك لشدة تمكن الإشراك من نفوس العرب وغيرهم.

وكان معظم الأصنام تماثيل فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريماً لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها، ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك.

واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الروح إذا كانت مستكملة الأعضاء التي لا يعيش ذو الروح بدونها، وعلى كراهة ما عدا ذلك مثل التماثيل المنصفة، ومثل الصور التي على الجدران، وعلى الأوراق، والرقم في الثوب، ولا ما يجلس عليه ويداس، وحكم صنعها يتبع اتخاذها.

ووقعت الرخصة في اتخاذ صور تلعب بها البنات؛ لفائدة اعتيادهن العملَ بأمور البيت. ٢٢/١٦٢

٨- و﴿ الْعَرِمِ ﴾: يجوز أن يكون وصفاً من العرامة وهي الشدة والكثرة فتكون إضافة (السيل) إلى (العرم) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

ويجوز أن يكون (العرم) اسماً للسيل الذين كان يَنْصَبُّ في السد، فتكون الإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم، أي السيل العرم.

وكانت للسيول والأودية في بلاد العرب أسماء كقولهم: سيل مهزور ومذينيب الذي كانت تسقى به حدائق المدينة، ويدل على هذا المعنى قول الأعشى:

ومأرب عفّى عليها العرم

وقيل: (العرم) اسم جمع عرَمَة بوزن شجرة، وقيل لا واحد له من لفظه وهو ما بني ليمسك الماء لغة يمنية وحبشية، وهي المسناة بلغة أهل الحجاز، والمسناة بوزن مفعلة التي هي اسم الآلة مشتق من سنيت بمعنى سقيت، ومنه سميت الساقية سانية وهي الدلو المستقى به والإضافة على هذين أصيلة.

والمعنى: أرسلنا السيل الذي كان مخزوناً في السد.

وكان لأهل سبأ سد عظيم قرب بلاد مأرب يعرف بسد مأرب ـ ومأرب من كور[1] اليمن ـ.

وكان أعظم السداد في بلاد اليمن التي كانت فيها سداد كثيرة متفرقة، وكانوا جعلوا هذه السداد لخزن الماء الذي تأتي به السيول في وقت نزول الأمطار في الشتاء والربيع؛ ليسقوا منها المزارع والجنات في وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف، فكانوا يعمدون إلى ممرات السيول من بين الجبال، فيبنون في ممر الماء سوراً من صخور يبنونها بناء محكماً يصبون في الشقوق التي بين الصخور القار حتى تلتئم، فينحبس الماء الذي يسقط هنالك حتى إذا امتلأ الخزان جعلوا بجانبيه جَوابيَ عظيمةً يصب فيها الماء يفيض من أعلى السد، فيقيمون من ذلك ما يستطيعون من توفير الماء المختزن.

وكان سد مأرب الذي يحفظ فيه: ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ شرع في بنائه سبأ أول ملوك هذه الأمة، ولم يتمَّه؛ فأتمه ابنه حمير.

وأما ما يقال من أن بلقيس بنته فذلك اشتباه؛ إذ لعل بلقيس بَنَتْ حَولَه خزانات أخرى فرعيةً، أو رممت بناءه ترميماً أطلق عليه اسم البناء؛ فقد كانوا

---

١ ـ الكور: جمع كُوْرة، وهي الأعمال، والأجناد، أو ما يُعرف في وقتنا الحاضر بـ: المحافظات. (م)

يتعهدون تلك السداد بالإصلاح والترميم كل سنة حتى تبقى تجاه قوة السيول الساقطة فيها.

وكانوا يجعلون للسد منافذ مغلقة يزيلون عنها السَّكر إذا أرادوا إرسال الماء إلى الجنات على نوبات يُرسل عندها الماء إلى الجهات المتفرقة التي تسقى منه إذ جعلوا جناتهم حول السد مجتمعة، وكان يصب في سد مأرب سبعون وادياً.

وجعلوا هذا السد بين جبلين يعرف كلاهما بالبَلَق، فهما البلق الأيمن، والبلق الأيسر.

وأعظم الأودية التي كانت تصب فيه اسمه (إذنه) فقالوا: أن الأودية كانت تأتي إلى سبأ من الشحْر وأودية اليمن.

وهذا السد حائط طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وارتفاعه بضع عشرة ذراعاً وعرضه مائة وخمسون ذراعاً.

وقد شاهده الحسن الهمداني، ووصفه في كتابه المسمى بالإكليل وهو من أهل أوائل القرن الرابع بما سمعت حاصله.

ووصفه الرحالة (أرنو) الفرنسي سنة ١٨٨٣ والرحالة (غلازر) الفرنسي.

ولا يعرف وقت انهدام هذا السد، ولا أسباب ذلك.

والظاهر إن سبب انهدامه اشتغال ملوكهم بحروب داخلية بينهم ألهتهم عن تفقد ترميمه حتى تخرب، أو يكون قد خربه بعض من حاربهم من أعدائهم، وأما ما يذكر في القصص من أن السد خربته الجرذان فذلك من الخرافات.

وفي العرم قال النابغة الجعدي:

مــن ســبإ الحاضــرين مــأرب إذ ... يبنــون مــن دون ســيله العرمــا

والتبديل: تعويض شيء بآخر، وهو يتعدى إلى المأخوذ بنفسه، وإلى المبذول بالباء وهي باء العوض كما تقدم في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ في سورة النساء.

فالمعنى :أعطيناهم أشجار خمط وأثل وسدر عوضاً عن جنتيهم، أي صارت بلادهم شَعْراء قاحلة ليس فيها إلا شجر العِضاة والبادية.

وفيما بين هذين الحالين أحوال عظيمة انتابتهم، فقاسوا العطش، وفقدان الثمار حتى اضطروا إلى مفارقة تلك الديار، فلما كانت هذه النهاية دالة على تلك الأحوال طوي ذكر ما قبلها، واقتصر على: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ إلى آخره. ٢٢/١٦٩ـ١٧١

٩ـ **والخمط:** شجر الأراك، ويطلق الخمط على الشيء المُرّ.

والأثل: شجر عظيم من شجر العضاه يشبه الطرفاء.

والسدر: شجر من العضاه ـأيضاًـ له شوك يشبه شجر العناب، وكلها تنبت في الفيافي.

والسدر أكثرها ظلاً، وأنفعها؛ لأنه يغسل بورقه مع الماء، فينظف، وفيه رائحة حسنة؛ ولذلك وصف هنا بالقليل؛ لإفادة أن معظم شجرهم لا فائدة منه، وزيد تقليله قلة بذكر كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ المؤذنة في ذاته بالقلة، يقال شيء من كذا، إذا كان قليلاً. ٢٢/١٧١ـ١٧٢

١٠ـ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾.

والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جواباً عن مواعظ أنبيائهم

والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعظونهم بأن الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية وهم يجيبون بهذا القول؛ إفحاماً لدعاة الخير منهم على نحو قول كفار قريش: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قبل هذا ﴿ فَأَعْرَضُوْا ﴾ فإن الإعراض يقتضي دعوة لشيء ويفيد هذا المعنى قوة ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ عقب حكاية قولهم؛ فإنه إما معطوف على جملة: ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي فأعقبوا ذلك بكفران النعمة وبالإشراك؛ فإن ظلم النفس أطلق كثيراً على الإشراك في القرآن، وما الإشراك إلا أعظم كفران نعمة الخالق. ١٧٦/٢٢

١١ـ **وأشارت الآية إلى التفرق الشهير الذي أصيبت به قبيلة سبا**؛ إذ حملهم خراب السد، وقحولة الأرض إلى مفارقة تلك الأوطان مفارقة وتفريقاً ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا، أو تفرقوا أيدي سبا، أو أيادي سبا، بتخفيف همزة سبا؛ لتخفيف المثل.

وفي لسان العرب في مادة (يدي) قال المعري: لم يهمزوا سبا؛ لأنهم جعلوه مع ما قبله بمنزلة الشيء الواحد.

هكذا، ولعله التباس أو تحريف، وإنما ذكر المعري عدم إظهار الفتحة على ياء (أيادي) أو (أيدي) كما هو مقتضى التعليل؛ لأن التعليل يقتضي التزام فتح همزة سبا كشأن المركب المزجي.

قال في لسان العرب: وبعضهم ينوِّنه إذا خففه، قال ذو الرمة:

فيا لك من دار تفرق أهلها أيادي سبا عنها وطال انتقالها

والأكثر عدم تنوينه قال كثير:

أيادي سبا يا عز ما كنتُ بعدكم   فلم يحلُ بالعينين بعدكِ منظر

والأيادي والأيدي فيه جمع يد، واليد بمعنى الطريق.

والمعنى: أنهم ذهبوا في مذاهب شتى يسلكون منها إلى أقطار عدة كقوله ـتعالىـ: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾.

وقيل: الأيادي جمع يد بمعنى النعمة؛ لأن سبأ تَلِفت أموالهم.

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشر أفخاذ وهم: الأزد، وكندة، ومَذحج، والأشعريون، وأنمار، وبَجيلة، وعاملة وهم خُزاعة، وغسان، ولخم، وجُذام.

فلما فارقوا مواطنهم فالستة الأولون تفرقوا في اليمن والأربعة الأخيرون خرجوا إلى جهات قاصية فلحقت الأزد بعمان، ولحقت خزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج بيثرب، ولعلهم معدودون في لخم، ولحقت غسان ببُصرى، والغُوير من بلاد الشام، ولحقت لخم بالعراق. ٢٢/١٧٨ـ١٧٩

١٢ـ والجمع بين ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ في الوصف لإفادة أن واجب المؤمن التخلق بالخلقين وهما: الصبر على المكاره، والشكر على النعم، وهؤلاء المتحدث عنهم لم يشكروا النعمة فبطروها، ولم يصبروا على ما أصابهم من زوالها؛ فاضطربت نفوسهم، وعمهم الجزع؛ فخرجوا من ديارهم، وتفرقوا في الأرض، ولا تسأل عما لاقوه في ذلك من المتالف والمذلات.

فالصبّار يَعْتبر من تلك الأحوال؛ فيعلم أن الصبر على المكاره خير من الجزع، ويرتكب أخف الضررين، ولا يستخفه الجزع، فيلقي بنفسه إلى الأخطار، ولا ينظر في العواقب.

والشكور يعتبر بما أعطي من النعم؛ فيزداد شكراً لله ـ تعالى ـ ولا يَبْطُرُ النعمةَ، ولا يطغى، فيُعاقب بسلبها كما سلبت عنهم، ومن وراء ذلك أن يحرمهم الله التوفيق.

وأن يقذف بهم الخذلان في بنيات الطريق.

وفي الآية دلالة واضحة على أن تأمين الطريق وتيسير المواصلات وتقريب البلدان؛ لتيسير تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق من هنا ومن هناك نعمة إلهية، ومقصد شرعي يحبه الله لمن يحب أن يرحمه من عباده كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ وقال: ﴿ وَإِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ ﴾ وقال: ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾.

فلذلك قال هنا: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾. ٢٢/١٨٠ـ١٨١

١٣ـ من أجل ذلك كله كان **حقاً على ولاة أمور الأمة أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد وحراسة السبل** وتيسير الأسفار وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها وصغيرها بمختلف الوسائل، وكان ذلك من أهم ما تنفق فيه أموال المسلمين، وما يَبْذِلُ فيه أهلُ الخيرِ من الموسرين أموالَهم؛ عوناً على ذلك، وذلك من رحمة أهل الأرض المشمولة لقول النبيﷺ: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

وكان حقاً على أهل العلم والدين أن يرشدوا الأئمة والأمة إلى طريق الخير، وأن ينبهوا على معالم ذلك الطريق ومسالكه بالتفصيل دون الإجمال؛ فقد افتقرت الأمة إلى العمل، وسئمت الأقوال. ٢٢/١٨١

١٤ـ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾.

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف، وهو أن لا يترك المُجادلُ لخصمه موجبَ تَغَيُّظٍ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظِر ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللفِّ.

فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولِين موجَّهون إلى الهدى والآخِرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا ـأيضاًـ من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه ـأيضاًـ تجاهل العارف؛ فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات. ١٩٢/٢٢

١٥ـ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾.

قفَّوا على صريح كفرهم بالقرآن وغيره من الشرائع بكلام كنَّوا به عن إبطال حقية الإسلام بدليل سفسطائي؛ فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله ـتعالىـ فضمير: ﴿وَقَالُوْا﴾ عائد إلى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ الخ.

وهذا من تمويه الحقائق بما يحف بها من العوارض؛ فجعلوا ما حف بحالهم في كفرهم من وفرة المال والوالد حجة على أنهم مظنة العناية عند الله، وأن ما هم عليه هو الحق.

وهذا تعريض منهم بعكس حال المسلمين بأن حال ضعف المسلمين، وقلة عددهم، وشظِف عيشهم حجة على أنهم غير محظوظين عند الله، ولم يتفطنوا إلى أن أحوال الدنيا مسببة على أسباب دنيوية لا علاقة لها بأحوال الأولاد.

وهذا المبدأ الوهمي السفسطائي خطير في العقائد الضالة التي كانت لأهل الجاهلية والمنتشرة عند غير المسلمين، ولا يخلو المسلمون من قريب منها في تصرفاتهم في الدين، ومرجعها إلى قياس الغائب على الشاهد، وهو قياس يصادف الصواب تارة، ويخطئه تارات.

ومن أكبر أخطاء المسلمين في هذا الباب خطأ اللجَأ إلى القضاء والقدر في أعذارهم، وخطأ التخلق بالتوكل في تقصيرهم وتكاسلهم. ٢٢/٢١٢-٢١٣

١٦- وبهذا أخطأ قول أحمد بن الراوندي:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرةً ... وصيَّر العالمَ النحريرَ زنديقا

فلو كان عالماً نحريراً لما تحير فهمه، وما تزندق من ضيق عطن فكره. ٢٢/٢١٤

١٧- ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾.

وهذا تعليم للمسلمين بأن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا قال -تعالى-:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾.

فأما نعيم الدنيا فهو مسبب عن أحوال دنيوية رتبها الله ـتعالىـ ويسرها لمن يسرها في علمه بغيبه، وأما نعيم الآخرة فهو مسبب عن أعمال مبينة في الشريعة وكثير من الصالحين يحصل لهم النعيم في الدنيا مع العلم بأنهم منعَّمون في الآخرة كما أنعم على داود وسليمان، وعلى كثير من أصحاب محمدﷺ وكثير من أئمة الدين مثل مالك بن أنس، والشافعي، والشيخ عبد الله بن أبي زيد، وسحنون.

فأما اختيار الله لنبيه محمدﷺ حالة الزهادة في الدنيا فلتحصل له غاياتُ الكمال من التمحض لتلقي الوحي، وجميل الخصال، ومن مساواة جمهور أصحابه في أحوالهم، وقد بسطناه بياناً في **رسالة طعام رسول الله ـ عليه السلام ـ**.

وأعقب ذلك بترغيب الأغنياء في الإنفاق في سبيل الله؛ فجعل الوعد بإخلاف ما ينفقه المرء كناية عن الترغيب في الإنفاق؛ لأن وعد الله بإخلافه مع تأكيد الوعد يقتضي أنه يحب ذلك من المنافقين. ٢٢/٢٢٠

سورة فاطر

١ـ **سميت (سورة فاطر)** في كثير من المصاحف في المشرق والمغرب وفي كثير من التفاسير.

وسميت في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي وفي كثير من المصاحف والتفاسير **(سورة الملائكة)** لا غير.

وقد ذكر لها كلا الاسمين صاحب الإتقان؛ فوجه تسميتها (سورة فاطر) أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة، ولم يقع في أول سورة أخرى.

ووجه تسميته (سورة الملائكة) أنه ذكر في أولها صفة الملائكة، ولم يقع في سورة أخرى.

وهي مكية بالاتفاق وحكى الآلوسي عن الطبرسي أن الحسن استثنى آيتين: آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ الآيةَ، وآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآيةَ، ولم أر هذا لغيره.

وهذه السورة هي الثالثة والأربعون في ترتيب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم.

وقد عدت آيها في عد أهل المدينة والشام ستاً وأربعين، وفي عد أهل مكة والكوفة خمساً وأربعين. ٢٢/٢٤٧

٢ـ **أغراض هذه السورة:** اشتملت هذه السورةُ على إثباتِ تَفَرُّدِ الله ـتعالى ـ بالإلهية؛ فافْتُتِحَتْ بما يدل على أنه مستحقُ الحمدِ على ما أبدع من الكائناتِ الدالِّ إبداعُها على تفرده ـتعالى ـ بالإلهية.

وعلى إثباتِ صِدْقِ الرسولﷺ فيما جاء به وأنه جاء به الرسل من قبله، وإثباتِ البعث والدار الآخرة.

وتذكيرِ الناسِ بإنعام الله عليهم بنعمةِ الإيجادِ ونعمةِ الإمداد، وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئاً وقد عبدهم الذين من قبلهم فَلَمْ يغنوا عنهم.

وتثبيتِ النبيﷺ على ما يلاقيه من قومه.

وكشفِ نواياهم في الإعراض عن اتباع الإسلام؛ لأنهم احتفظوا بعزتهم.

وإنذارِهم أن يَحُلَّ بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم.

والثناءِ على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين.

وتذكيرِهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسولٌ؛ فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا.

وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم؛ فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم، وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم؛ فإن الله لا يخلف وعده.

والتحذيرِ من غرورِ الشيطان، والتذكير، بعداوتِه لنوع الإنسان. ٢٢/٢٤٧-٢٤٨

٣- وجملة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن ما ذكر من صفات الملائكة يثير تعجب السامع أن يتساءل عن هذه الصفة العجيبة، فأجيب بهذا الاستئناف بأن مشيئة الله -تعالى- لا تنحصر ولا تُوقَّت.

ولكل جنس من أجناس المخلوقات مقوماته وخواصه.

فالمراد بالخلق: المخلوقات كلها، أي يزيد الله في بعضها ما ليس في خلق آخر.

فيشمل زيادة قوة بعض الملائكة على بعض، وكل زيادة في شيء بين المخلوقات من المحاسن والفضائل من حصافة عقل وجمال صورة وشجاعة

وذلقة لسان ولياقة كلام.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ صفة ثانية للملائكة، أي أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في خلقهم ما يشاء كأنه قيل: مثنى وثلاث ورباع وأكثر، فما في بعض الأحاديث من كثرة أجنحة جبريل يبين معنى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

وعليه فالمراد بالخلق ما خُلق عليه الملائكة من أن لبعضهم أجنحة زائدة على ما لبعض آخر. ٢٢/٢٥١

٤ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

لما جرى ذكر رحمة الله التي تعم الناس كلهم أقبل على خطابهم بأن يتذكروا نعمة الله عليهم الخاصة، وهي النعمة التي تخص كل واحد بخاصته، فيأتلف منها مجموع الرحمة العامة للناس كلهم، وما هي إلا بعض رحمة الله بمخلوقاته.

والمقصود من تذكر النعمة شكرُها وقَدْرُها قَدْرَها.

ومن أكبر تلك النعم نعمة الرسالة المحمدية التي هي وسيلة فوز الناس الذين يتبعونها بالنعيم الأبدي.

فالمراد بالذكر هنا التذكر بالقلب وباللسان، فهو من عموم المشترك، أو من إرادة القدر المشترك؛ فإن الذكر باللسان والذكر بالقلب يستلزم أحدهما الآخر، وإلا لكان الأول هذياناً، والثاني كتماناً.

قال عمر بن الخطاب: «أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه» أي وفي كليهما فضل. ٢٢/٢٥٣ـ٢٥٤

٥ـ ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾.

والمراد بالعلماء: العلماء بالله وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشيةُ، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفة على وجهها فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله؛ ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية؛ فهو يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر؛ فهو يأتي ويدَعُ من الأعمال ما فيه مراد الله ومَقْصِدُ شرعِه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات؛ لداعي شهوةٍ أو هوىً أو تعجلِ نفعٍ دنيوي كان في حال المخالفة موقناً أنه مُوَرَّط فيما لا تحمد عقباه؛ فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشية العلماء.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: «والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به، وأكثرهم له خشية، وفيما عنده رغبة». ٢٢/٣٠٤ـ٣٠٥

٦ـ **والظالمون لأنفسهم** هم الذين يجرون أَنْفُسَهم إلى ارتكاب المعصية؛ فإن معصيةَ المرءِ ربَّه ظُلْمٌ لنفسه؛ لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها، وذلك ظُلْمٌ للنفس، لأنه اعتداء عليها؛ إذ قَصَّر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير، وورطها فيما تجد جزاء ذميماً عليه.

قال ـتعالى ـ حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نهيا عنه من أكل الشجرة:

﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ وقال: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ وقال: ﴿ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ في سورة النمل، وقال: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ في سورة الزمر.

واللام في (لنفسه) لام التقوية لأن العامل فرع في العمل؛ إذ هو اسم فاعل.

والمقتصد: هو غير الظالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهم الذين اتقوا الكبار، ولم يحرموا أنفسهم من الخيرات المأمور بها، وقد يُلِمُّون باللمم المعفوِّ عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القربات الرافعة للدرجات؛ فالاقتصاد افتعال من القصد وهو ارتكاب القصد وهو الوسط بين طرفين يبينه المقام؛ فلما ذكر هنا في مقابلة الظالم والسابق علم أنه مرتكب حالةً بين تينك الحالتين؛ فهو ليس بظالم لنفسه، وليس بسابق.

والسابق أصله: الواصل إلى غايةٍ معينة قبل غيره من الماشين إليها.

وهو هنا مجاز لإحراز الفضل؛ لأن السابق يحرز السَّبَق -بفتح الباء- أو مجاز في بذل العناية؛ لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مكنى عن الإكثار من الخير؛ لأن السبق يستلزم إسراعَ الخطوات، والإسراع إكثار، وفي هذا السبق تفاوت -أيضاً- كخيل الحلبة. ٢٢/٣١٢-٣١٣

٧- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾.

مقابلة الأقسام الثلاثة للذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين يزيدنا يقيناً بأن تلك الأقسام أقسام المؤمنين، ومقابلة جزاء الكافرين بنار جهنم يوضح أن الجنة

دار للأقسام الثلاثة على تفاوت في الزمان والمكان. ٣١٧/٢٢

٨ـ وجملة: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ تذييل أو موعظة.

ويحيق: ينزل بشيء مكروه حاق به، أي نزل وأحاط إحاطة سوء، أي لا يقع أثره إلا على أهله.

وفيه حذف مضاف تقديره: ضَرُّ المكرِ السيِّئ أو سوء المكر السيء كما دل عليه فعل **(يحيق)** فإن كان التعريف في **(المكر)** للجنس كان المراد بـ**(أهله)** كل ماكر.

وهذا هو الأنسب بموقع الجملة، ومحملها على التذييل، ليعم كل مكر، وكل ماكر؛ فيدخل فيه الماكرون بالمسلمين من المشركين؛ فيكون القصر الذي في الجملة قصراً ادعائياً مبنياً على عدم الاعتداد بالضر القليل الذي يحيق بالممكور به بالنسبة لما أعده الله للماكر في قدره من ملاقاة جزائه على مكره؛ فيكون ذلك من النواميس التي قدَّرها القدَرُ لنظام هذا العالم؛ لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض، والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضاً تنكر بعضهم لبعض، وتبادروا الإضرار والإهلاك؛ ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه؛ فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم، والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء.

ولهذا قيل في المثل: «وما ظالم إلا سيبلى بظالم» وقال الشاعر:

لكل[1] شيء آفة من جنسه — حتى الحديد سطا عليه المبرد

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله ـتعالىـ: ﴿وَاللَّهُ لا

---

١ ـ البيت يروى: ولكل شيء ... بإثبات الواو حتى يستقيم الوزن. (م)

يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾.

وفي كتاب ابن المبارك في الزهد بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تمكر، ولا تُعن ماكراً فإن الله يقول:** ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾».

ومن كلام العرب: «من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً».

ومن كلام عامة أهل تونس «يا حافر حفرة السوء ما تحفر إلا قياسك».

وإذا كان تعريف (المكر) تعريف العهد كان المعنى: ولا يحيق هذا المكر إلا بأهله، أي الذين جاءهم النذير؛ فازدادوا نفوراً، فيكون موقع قوله: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ موقع الوعيد بأن الله يدفع عن رسوله ﷺ مكرهم، ويحيق ضُرّ مكرِهم بهم بأن يسلط عليهم رسوله على غفلة منهم كما كان يوم بدر ويوم الفتح، فيكون على نحو قوله -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ فالقصر حقيقي.

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية، ومعجزات قرآنية، ومعجزات نبوية خفية. ٢٢/٣٣٥-٣٣٦

٩- واعلم أن قوله -تعالى-: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ قد جعل في علم المعاني مثالاً للكلام الجاري على أسلوب المساواة دون إيجاز ولا إطناب.

وأول من رأيته مثل بهذه الآية للمساواة هو الخطيب القزويني في الإيضاح وفي تخليص المفتاح، وهو مما زاده على ما في المفتاح، ولم يمثل صاحب المفتاح للمساواة بشيء ولم أدر من أين أخذه القزويني؛ فإن الشيخ عبدالقاهر لم يذكر الإيجاز والإطناب في كتابه.

وإذ قد صرح صاحب المفتاح أن المساواة هي متعارف الأوساط وأنه لا يحمد

في باب البلاغة ولا يذم ـ فقد وجب القطع بأن المساواة لا تقع في الكلام البليغ، بَلْهَ المعجز.

ومن العجيب إقرارُ العلاَّمةِ التفتزاني كلامَ صاحبِ تلخيص المفتاح، وكيف يكون هذا من المساواة وفيه جملة ذات قصرٍ، والقصر من الإيجاز؛ لأنه قائم مقام جملتين: جملة إثبات للمقصود، وجملة نفيه عما سواه، فالمساواة أن يقال: يحيق المكر السيء بالماكرين دون غيرهم، فما عدل عن ذلك إلى صيغة القصر فقد سُلك طريقه الإيجاز.

وفيه ـأيضاًـ حذف مضاف؛ إذ التقدير: ولا يحيق ضر المكر السيء إلا بأهله على أن في قوله: ﴿ بِأَهْلِهِ ﴾ إيجازاً؛ لأنه عوض عن أن يقال: باللذين تقلدوه.

والوجه أن المساواة لم تقع في القرآن، وإنما مواقعها في محادثات الناس التي لا يعبأ فيها بمراعاة آداب اللغة. ٣٣٦/٢٢